مستور ورفيقاه .. إذا كانتِ النفوسُ كِباراً

بقلم: عمر الدقير

من لم يقرأ عن فترات الاستبداد والظلامية والانحطاط في التاريخ الانساني سيجدها ماثلةً أمامه في سودان الانقاذ، حيث تتوالى المشاهد تباعاً لتفضح عُرْياً من المكارم وعطالةً بائنةً عن كلِّ القيم الانسانية النبيلة .. ومن لم يقرأ عن امتهان الطغاة لكرامة الانسان وتحويل دمه إلى ماءٍ يسيل على قارعة التاريخ، ها هو يراهم في السودان متلبسين بهذا الجرم الذي ما بعده جرم.

حُكْم الجلد الذي أصدرته محكمة جنايات أمدرمان، في السادس من يوليو الجاري، وتمَّ تنفيذه على كلٍّ من مستور أحمد الأمين السياسي لحزب المؤتمر السوداني وعضوي الحزب عاصم عمر وإبراهيم زين، عقاباً لهم على ممارسة حقهم الدستوري في التعبير السلمي عن رؤاهم السياسية، يمثل جولةً جديدةً من جولات الصراع الأبدي بين الحرية والاستبداد .. إنها حوارية ضاربة الجذور في أعماق التاريخ الانساني، فهناك على الدوام ثمة باطلٍ يتربَّص بالحقيقة ليغتالها، مثلما هناك على الدوام ثمة مُقاوِمٍ يُشْهِر جسده في مواجهة سياط الجلاد المستبد وفوهات بنادقه العمياء، وأيّ استنتاج لنهاية جولات هذا الصراع لن يكون من باب التنبؤ أو قراءة فناجين الطوالع، لأنَّ الاحتكام للقرائن في مسيرة البشرية منذ فجر تاريخها يثبت أنَّ المستقبل حليف الحقيقة وأنَّ لواء النصر معقودٌ في نهاية الأمر لطلاب الحرية والعدالة، وما كان للبشرية أن تحقق ما حققت من منجزاتٍ حضارية لو أنَّ الباطل انتصر على الحقيقة ولو أنَّ الاستبداد أجبر كلمة الحرية أن تغادر القواميس .. لكنَّ المستبدين عند تنكيلهم بضحاياهم من طلاب الحرية يجهلون أنَّها قد تكون أغلى من الحياة، لهذا يموت الناس دفاعاً عن حقهم في الحرية رغم إدراكهم بأنهم لن ينعموا بها، وإن كان سينعم بها لاحقاً ورثة الدم ومن يولدون من رحم واقعٍ غاشمٍ مُفعمٍ بهدر الكرامة وسلب الحقوق .. ولئن كانت حادثة جلد مستور ورفيقيه مدعاة للحزن ورفع منسوب الغضب وارتعاش الأصابع حين الكتابة عنها، فإنها تؤكِّد أنَّ السودانيين الشرفاء همُ القادمون أبداً بعد السودانيين الشرفاء، وأنَّ هذه السلالة المجيدة امتصت عبر حقبٍ سابقة من عمر هذا الوطن كلَّ الضربات التي هدفت لإبادتها وظلت راكزةً في ترابه في مواجهة حيف الشموليات وبطشها.

مستور أحمد ورفيقاه وأمثالُهم من شباب هذا الجيل منكودون ومحظوظون ومحطُّ أملٍ لشعبهم في آن .. هم منكودون لأنَّهم يعيشون أنضر سنوات أعمارهم في كنف ثنائية الفساد والاستبداد التي تسيطر على وطنهم وتبثُّ الشقاءَ في كلِّ مدنه وقراه، وهم محظوظون لأنَّهم رأوا كلَّ شيءٍ بأمِّ العين وعرفوا بؤس "المشروع الحضاري" وشعاراته الجوفاء التي نسبها القياصرة الجدد إلى السماء، وهم محطُّ أملٍ لأنهم صمَّموا ألَّا يعتذروا عن وعيهم وأن يسموا بنفوسهم لتكون كباراً مهما أتعبهم مرادُها، ولو كان ذلك سياطاً على ظهورهم أو سجناً أو حتى رصاصاً على صدورهم كما حدث في هبة سبتمبر 2013 .. إنَّهم يَرَوْن سودانَيْن، أحدهما هذا الراهن بكلِّ ما فيه من فسادٍ واستبدادٍ ورداءةٍ واستنقاع، والآخر هو سودان المستقبل الذي يعجُّ بمُمْكِنات النُّهوض والتقدُّم .. هم محطُّ أملٍ لأنَّهم راهنوا على سودان المستقبل المُحرَّر من الفقر والجهل والمرض والاحتراب وهشاشة الانتماء، وقرَّروا أن يخوضوا معركة العبور إليه قابضين على جمرة الموقف الشريف حتى لو أحرقت أصابعهم، وأن يكونوا لِقاحاً في زمن الوباء ودفاعاً باسلاً عن البقاء على قيد الضَّمير وتمرُّداً على الظلم والطغيان.

يُروَى عن الشيخ مُحي الدِّين بن عربي "رضي الله عنه" أنَّه كان يجلد رجليه طوال الليل لأنَّهما لا تقويان على حمل روحِه، لكنَّ من يستحق الجلد هم من جلدوا مستوراً ورفيقيه .. إنَّهم يستحقون الجلد لا على طريقة بن عربي، الذي كان يحدوه نشدان الكمال وتحقيق الفضائل في مستوياتها الأرقى، وإنَّما يستحقونه لأنَّ شهوة السُّلطة والثروة تسيطر على خطابهم وسلوكهم وتشدُّ أرواحَهم إلى أسفل سافلين.

لمستور ورفيقيه وشعبِهم تشرقُ الشمسُ غداً، ولجلَّاديهم تنعقُ بومةُ الغسق.

omereldigair@yahoo.com